ثلاثية الشك (٣)

النسبة والشك

علي أحمد الديري

ما معنى أن فهمنا نسبي؟ وهل يمكن أن نفهم شيئاً من غير نسبة؟ أي هل يمكن أن نفهم شيئاً من دون أن ننتسب لشيء؟ وهل يمكن أن نفهم شيئا من دون أن ننسبه لشيء؟ وما العلاقة بين النسبي والشك؟

تقدم المعطيات المعجمية، الدلالات التالية للنسبة والنسبي:

§أَمْرٌ نِسْبِيٌّ: أَيْ أَمْرٌ مُقَيَّدٌ بِغَيْرِهِ مُرْتَبِطٌ بِهِ غَيْرُ مُطْلَقٍ

§عَلاَقَةٌ وَارْتِبَاطٌ بَيْنَ شَيْئَيْنِ

§وُجُودُ تَمَاثُلٍ بَيْنَ عَلاَقَاتِ الكَمِّيَّاتِ أَوْ عَلاَقَاتِ الأَشْيَاءِ

§المقيَّد بغيره، المرتبط به، وعكسُه المُطْلق

§الصِّلة أو القرابة

§المشاكلة

§المقدارُ المنسوب

§النسبة المَئَوية، هي مقدار الشيء منسوباً إلى مئة.

في التداولات الإعلامية والثقافية ، وحتى في خطابنا اليومي، صار (النسبي) يعني الأمر غير اليقيني، والمسألة التي تخضع لوجهات نظر متعددة، والتطبيق الذي هو محل تقدير متباين، والقول الذي هو قابل للاختلاف في الفهم، والحكم الذي يتأثر باختلاف مرجعياته، والذوق المتعدد.

إن الدلالات التي تحملها جميع هذه الاستعمالات التداولية المتعددة تستعمل ما يقتضيه النسبي من نتائج، فالنسبي يقتضي عدم اليقين والتعدد في الحكم واختلاف التطبيق وتباين الفهم، إلا أن هذه الاستعمالات ربما لا تلتفت إلى السبب الذي تشير إليه الدلالة اللغوية، والذي يجعل هذه المقتضيات نسبية، فلماذا الإنسان نسبي؟ ولماذا فهمه نسبي؟ وحكمه نسبي؟ وتطبيقه نسبي؟

الجواب الذي يشير إليه المعنى اللغوي للنسبي هو أن النسبي " أَمر مُقيد بِغَيرِهِ مرتَبِط بِهِ غَيرُ مطْلَق" . واستناداً إلى هذا المعنى، يمكن القول إن معنى أن الإنسان نسبي وفهمه نسبي أن الإنسان مُقيد بِغَيرِهِ مرتَبِط بِهِ غَيرُ مطْلَق، وكذلك فهمه . وهذا المعنى يحمل ، في الوقت نفسه ، تعليلاً يفسر نسبية الإنسان .

علينا الآن أن نستثمر هذا التعليل الذي يحمله المعنى اللغوي، لنذهب به إلى مداه الأقصى ، علينا أن نزيل أولاً الشحنة السلبية التي تحف بدلالة القيد، فالقيد . في دلالته المفهومية على النسبي . لا يعني شيئاً أجمل وأكثر إيجابية من معنى (الصلة) ، فالقيد في النسبي يحيل إلى الصلة التي يعقدها الكائن مع غيره، ليصل فهمه بفهمه، فهو مقيد بهذه الصلة التي تمده بالمعنى الذي به يفهم الأشياء ويقدرها ويحكم عليها ، وكأن العقد الذي يقيمه مع غيره عقد عمل، فلكي يعمل فهمك ويكون نافذاً في التقدير والحكم، فأنت بحاجة إلى أن تعقد صلات تمدك بالعون، أنت لست مطلق الصلات، أنت مقيد الصلات، لكنه تقييد يغنيك ويثريك ويضاعف من إمكانية عملك، وبقدر ما تكاثر من عقود الصلات تتحرر من الارتهان لقيد الصلة الواحدة.

الإنسان كائن منسوب العلاقة، أي لا يكف عن تعدُّد نسبته إلى الأشياء، ينسب ذاته إلى المألوف ليفهم الغريب، وإلى المعروف ليعرف المجهول، وإلى الشاهد ليصل إلى الغائب، وإلى المشهور ليعرف الشاذ، وإلى الظاهر ليعرف الباطن، وإلى المكشوف ليعرف المستور، وحين تقف نسبته إلى الحد الأول من هذه المنسوبات ولا يعبرها إلى الحد الثاني تكون نسبته قيدا بالمعنى السلبي .كان ابن عربي يقول في عبارة مكثفة : "إن كلَّ ما في الكون يجب أن يعبر" ، ولا يمكنك أن تعبر من دون نسبة تقيمها جسرا بين أشياء العالم.

كما أننا ننسب مقادير الأشياء إلى المئة، لنفهمها فهماً مئوياً، كذلك ننسبها إلى ما نألفه من شخصيات ومذاهب وظواهر ومسميات وأحداث وأماكن، لنفهمها فهماً أليفاً، ننسبه إلى هذه الشخصيات أو المذاهب أو الظواهر.

كان أخوان الصفا يستعملون تقسيم (فيلولاوس) الفيثاغورثي للكون، إلى ما فوق القمر وما تحت القمر، فينسبون ما تحت القمر إلى ما فوق القمر، ليفهموا الكون كلاً واحداً منسجماً ومؤتلفاً، بل إنهم كانوا يقيمون تصوراتهم لحكومة ما تحت القمر على وفق تصوراتهم لنظام ما فوق القمر.

إن الألوهية التي فوق القمر كان يفهمها المتكلمون بنسبتها إلى ما تحت القمر، وكانت كل نسبة تشكل صلة مختلفة بما فوق القمر، هكذا يتعدد ما فوق القمر بتعدد الصلات التي تحت القمر، كانت هذه النسب تمثل إضافات تغني ألوهية الواحد بالعين الكثير بالصور. ولأن ما تحت القمر نسبي، فهو لا يعرف ما فوق القمر إلا معرفة نسبية، أي معرفة غير مطلقة الصلة.

على هذا تكون العلاقة بين النسبي والمطلق تماثل العلاقة بين الشك واليقين.

المضامين الاجتماعية والنفسية في الثقافة (الجندرية)

د. قاسم حسين صالح

في العقد الاخير ظهرت توجهات في علم النفس وعلم الانسان (الانثروبولوجيا) اهتمت بمفهوم ما كان شائعاً من قبل هو (الجندر (Gender وكان من بين الذين شجعوا او حرضوا على الاهتمام به المنظمات النسائية التحررية في العالم. ومع ان هذا المفهوم بدأ يدخل في ثقافتنا العربية، إلا ان جوهر ما يعنيه نفسياً واجتماعياً وثقافياً لا يزال غير واضح حتى لدى عدد من اوساط المثقفين والاكاديميين. وتحاول هذه المقالة القاء الضوء على ما قد يكون الاهم في هذا الجوهر.

يعني (الجندر (Gender) وأقرب مفردة له في اللغة العربية هي: النوع) بنية ثقافية تشير إلى الاختلافات الجنسية، وهو غير (الجنس Sex، فالشائع في ثقافتنا ان الفرق بين الذكر والانثى هو فرق بيولوجي من حيث الاختلاف في الاعضاء الجنسية، خارجياً، والاختلاف في كروموسومي X و Y، داخلياً، فيما يطرح (الجندر، النوع) فرقاً آخر يحدده بالبعد الاجتماعي الثقافي لجنس الذكر ولجنس الانثى، ويعني به الخبرة النفسية للفرد، او ادراك الفرد لنفسه من حيث كونه ذكراً ام انثى، وقبوله او عدم قبوله لجنسه البايولوجي، فبعض الأفراد الذين هم ذكور من الناحية البايولوجية يمكن أن يشعروا نفسياً بالانوثة، او يكرهوا ادوارهم الذكورية، والعكس وارد ايضاً. فبعض الاناث يشعرن نفسياً بالذكورة، او يكرهن ادوارهن الانثوية.

ولكي نلم بالموضوع ونفهمه بيسر، ينبغي ان نفرق بين مفهومين مهمين للجندر: الاول، هوية النوع gender iden-tity، وتعني الخبرة الذاتية للشخص من حيث كونه ذكراً أو انثى، فلكل واحد منا (شخصية) تتألف من عدد من المكونات، وتعد (هوية النوع) مكوناً رئيساً في هويتنا الشخصية، وربما كانت اهم بعد في مفهوم الذات Self - concept.

والآخر: هوية دور النوع gen-der role identity، وتعني شعور الفرد (بنوعه الاجتماعي) من حيث كونه ذكراً ام انثى، بغض النظر عن جنسه البيولوجي، كما تعني دوره الاجتماعي في ضوء النشاطات التي تحددها الثقافة لكل من الذكور والإناث. وفي الغالب تتطابق الهوية النوعية (الجندرية) مع الخصائص العضوية، غير ان هنالك حالات لا يرتبط بها شعور الانسان بخصائصه العضوية، ولا بوجود توافق بين صفاته او تكوينه البيولوجي وهويته النوعية (الجندرية).

ونجم عن ذلك مفهوم ثالث هو "الطبقية الجندرية" gender stratiflcation. التي تعني تحديداً التوزيع غير المتساوي للمكافآت المتمثلة بالثروة والسلطة والمكانة والحرية الشخصية بين الرجال والنساء، التي تعكس مواقعهم المختلفة في الهرم الاجتماعي.

وتختلف (الطبقية الجندرية) باختلاف الانماط الاقتصادية والسياسية والثقافية والنسب والمنشأ الجغرافي. وتكون بارزة أو (حادة) في المجتمعات البطريركية، فالانظمة السياسية في هذه المجتمعات (حيث سلطة الحكم فيها للرجال) تميل إلى ان تصف النساء بانهن الأدنى في المكانتين السياسية والاجتماعية، بضمنها الحقوق الاساسية للانسان. وهذا يعود - في احد من اسبابه - إلى ان هذه الانظمة تؤمن او تتبنى ما يقوله دعاة الحتمية البيولوجية الذين يفترضون ان بعض السلوك البشري والتنظيمات الاجتماعية تكون محددة او محسومة بيولوجياً، وينسبون التفوق في الخصائص إلى الرجال، بالرغم من ان النساء في كل الثقافات يعشن عمراً اطول من الرجال، ويتمتعن بقدرات تحمل ممتازة، وخصائص اخرى سنأتي عليها لاحقاً.

وبالمقابل، يرى دعاة الحتمية الثقافية ان معظم محاولات الربط بين السلوك و(الجينات) غير مقنعة، ويفترضون ان نجاح التطور البشري كان بسبب مرونة الانسان وقدرته على التكيف بطرائق مختلفة، لاعتماده بشكل قوى على التعلم الثقافي، فقد وجد الانثروبولوجيون من المؤمنين بالحتمية الثقافية تنوعاً جوهرياً في ادوار كل من الرجال والنساء، وذلك عبر الثقافات المختلفة، مؤكدين ان الكثير من الاختلافات في السلوك والاتجاهات بين الجنسين، تحددها الثقافة وليس البيولوجياً، لافتين الانتباه إلى ان مفهوم (الجنس (Sex) ينبغي ان يتحدد حصرياً بالاختلافات البيولوجية، فيما يعني مفهوم النوع (gender) كل السمات التي تحددها الثقافة بشأن الذكور والاناث، أي انه بنية او تركيب ثقافي للخصائص او الصفات الخاصة بالذكر والانثى، التي تغرس الثقافة في الذهن، وتنقلها من جيل إلى آخر.

الثقافة ، والهوية والادوار الجندرية

تبدأ هوية النوع بالتشكل في مرحلة مبكرة من ولادة الطفل. فعند ولادة الرضيع، يحدد نوعه على اساس اعضائه الجنسية ويمنح بموجبها اسماً مناسباً. وفي معظم الثقافات تكون اسماء الذكور مختلفة عن اسماء الاناث، ولاسيما في ثقافتنا العربية، فهي لا تسمح لك بان تسمي ابنتك عمر او علي او حسن، مثلاً، ولا تسمح لك بان تسمي ولدك خديجة او زهرة او علياء، مثلاً.

ويتعلم الاطفال بسرعة تصرفات النوع (الجندر) فالولد يتصرف بطريقة معينة، والبنت تتصرف بطريقة اخرى، طبقاً للثقافة بوصفها انماط السلوك المحددة بمعايير اجتماعية، تصنف ما هو موصوف ومتوقع لمفهومين مستقرين في الذهن، هما (الذكورة) و(الانوثة)، فالسلوك الانثوي يكون متوقعاً من الاناث، والسلوك الذكوري يكون متوقعاً من الذكور، وبخلافه، فان الثقافة تصنف صاحب السلوك الذي لا يطابق نوعه (جندرة) بانه شاذ او منحرف او مختل عقلياً، وإنها تنبذه او تعاقبه وتضعه في السجن او في مصحة عقلية.

ولا تزال (الذكورة) و(الانوثة)، صنفين متمايزين في معظم الثقافات، عدا الغربية منها التي صارت تنظر اليهما بوصفيهما متصلاً متدرجاً، يتوزع الافراد عليه من مواقع مختلفة، ويؤدون ادوارهم، بغض النظر عن نوع جنسهم، بمعنى ان (الذكورة) و (الانوثة) في هذه الثقافات (الغربية) ما عادا ضدين، احدهما بمواجهة الآخر، كما هو الحال في ثقافاتنا العربية المطلة على الخليج، بل حدث تحول ثقافي جديد فحواه: ان النساء والرجال يمكن ان يكونوا ذكوريين وانثويين في آن واحد، ويذهب إلى ان النوع المثالي من الاشخاص هو ذلك الذي يجمع في شخصيته افضل صفات الذكورة وافضل صفات الانوثة، فافضل الناس هو من كان بناؤه النفسي مزيجاً من التعاطف الانساني والاحساس بالآخرين والتعبير الوجداني الرقيق (وهي الصفات التقليدية للانوثة) وبين القوة والاعتماد على النفس والتنافس (وهي الصفات التقليدية للذكورة).

وكما اشرنا، فان ادوار النوع gender roles وهي المهمات والنشاطات التي تحددها الثقافة لكلا الجنسين (الذكور والاناث)، وعلى هذا فان (دورك الجندري) هو التعبير الصريح للسلوك الذي تتصرف به، ويعكس (هويتك الجندرية). وطبيعي ان (الادوار الجندرية) تتباين من ثقافة إلى اخرى وتضع مجموعة من التوقعات للافراد على اساس جنسهم البيولوجي الذي يتطابق مع (الصورة النمطية للنوع gen-der stereo type وهذا مفهوم رابع يعني تحديداً: افكاراً مبسطة للغاية، ولكنها قوية، نحملها في الذهن، تتعلق بصفات كل من الذكور والاناث.

والصورة النمطية تفضي إلى تعميمات مبالغ بها، وغير صحيحة، لانها لا تستثني احداً من صفات او خصائص الجماعة التي ينتمي اليها. فعلى سبيل المثال، هنالك الكثير من الناس، حتى في الثقافات الغربية، لا يقبلون بترشيح المرأة لمنصب الرئاسة، وعندما تسألهم عن السبب يجيبونك بان النساء ضعيفات وليست لديهن القدرة على تحمل مهمات المناصب القيادية التي تتطلب مسؤوليات كبيرة وقرارات مصيرية، وهم يصلون في تعميمهم إلى القول بانه لا توجد امرأة لديها استثناء من الخصائص او السمات المأخوذة عن المرأة، التي تعني - عندهم - ان جميع النساء ضعيفات.

ولا تفرز الثقافة صوراً نمطية خاصة بالمرأة فقط، بل بالرجل ايضاً. فمع ان دراسات عربية توصلت إلى ان الصورة النمطية التي يحملها الرجل عن المرأة تركز على كونها اعتمادية تابعة وليست مكملة، وانها تنقصها القدرة الذهنية في مجال الفكر والمعرفة، فان الصورة النمطية التي تحملها المرأة عن الرجل تدور حول ان الرجل سبب تعاسة المرأة، وان الرجال جميعهم ماكرون، وان المرأة يجب ان لا تأمن الرجل.

والواقع ان الصورة النمطية (الجنسية) لا تزال موجودة في الثقافات الغربية، بالرغم من اهتزازها، فهي تتجسد عملياً في الترشيح المهني المفضل للرجال على النساء حتى في حال تساويهم بالمؤهلات التي يحملونها، وما يقال عن اشهر مصممي الازياء وعن اشهر طباخي العالم، وهم من الرجال، ما هو الا انعكاس لهذه الصورة.

الثقافة الجندرية والامراض النفسية

هل يمكن ان تؤدي الثقافة (الجندرية) إلى اختلافات في الاصابة بالاضطرابات النفسية؟. الجواب، نعم. فالمنظور الاجتماعي الثقافي (وهو منحى حديث في علم النفس يؤكد ان الثقافة والعرق والجندر تؤثر في السلوك والتفكير والانفعال) يرى ان الثقافات تختلف فيما بينها في التعبير عن الاضطرابات النفسية. وتفيد نتائج الدراسات العلمية بان النساء في الثقافات كافة يتعرضن إلى اضطرابات القلق (بانواعه الخمسة) بنسب اعلى مما لدى الرجال، ويعزى ذلك إلى خوف النساء من الانفصال عن الآخرين او إلى احتمال تعرضهن لإساءة بدنية او جنسية من الرجال، او إلى ان الثقافة (تعاقب) الرجال اذا ما اظهروا القلق فيما لا تفعل ذلك مع النساء، كما ان النساء اكثر تعرضاً للاكتئاب، لأسباب القلق نفسها، مضافة اليها المكانات الاجتماعية والاقتصادية المتدنية للمرأة.

وفيما يكثر اضطراب الشخصية الوسواسية القهرية بين الرجال، فان اضطراب الشخصية الهستيرية اكثر شيوعاً بين النساء. ولأنه لا تتوفر ادلة يقينية على اختلافات (جينية)، فان المرجح ان تعزى لعوامل ثقافية. ويبدو التفسير منطقياً اذا علمنا ان من صفات الشخصية الوسواسية القسرية ان صاحبها يصعب عليه صرف المال والعناد والحذر. ويتأخر في اتخاذ قرار الزواج حتى يتجاوز سن الاربعين، فيما تمتاز الشخصية الهستيرية بالمبالغة في وصف متاعبها او الاحداث التي تمر بها، وانها استعراضية في الملابس واختيار الالوان.

وعملت الثقافة على ان تزيد نسبة الاصابة بفقدان الشهية العصابي لدى النساء (أي الامتناع عن الاكل بقصد انقاص الوزن، مع الخوف الشديد من زيادة الوزن)، وكذلك النهام، أي كثرة الاكل. ويذكر هنا ان الاميرة ديانا كانت مصابة بالنهام لعدة سنوات، وقد عزته إلى احترام ذات منخفض وشعور بعدم الاهمية والقيمة "يتحول إلى ملء المعدة بخمس وجبات او اكثر باليوم، فتشعر بالراحة" على حد تعبيرها.

واللافت، ان اضطراب الهوية الانشطاري (أي اعتقاد الشخص بانه ولد بيولوجياً باعضاء جنس خطأ) تصاب به النساء اكثر من الرجال. وهنالك حالات كثيرة عبر ثقافات مختلفة طلبت فيها النساء تحويلهن بعمليات جراحية إلى رجال، وتم ذلك لعدد منهن، وحدث هذا مع الرجال، ولكن بنسبة اقل، وتم لهم ما ارادوا أي تحولوا إلى نساء.

اختلاف في الادمغة.. بنتائج مدهشة

نشط دعاة الحتمية البيولوجية في السنوات الاخيرة ليثبتوا (بالدليل القاطع) ان الاختلافات (الجندرية) تعود إلى اختلافات بيولوجية، فبدأوا بارقى الاعضاء، بتفحص ادمغة الرجال والنساء، وتوصلوا، عبر التقنيات الحديثة المذهلة، إلى الآتي:

هنالك ادلة ثابتة على وجود اختلافات في تركيبات الدماغ لدى كل من الرجال والنساء، وبينة واضحة عن اختلافات في مستويات الهورمونات الجنسية خلال مدة الحمل، تبين ان لها دوراً مهماً في الاختلافات (الجندرية) التي تظهر لاحقاً في مرحلة الرشد.

ووجدوا ان القشرة الدماغية عند الرجال (كمعدل عام) اكبر بمقدار (١٠٪) مما هي لدى النساء، وذلك من الطفولة إلى مرحلة الرشد المتأخر.

ووجدوا ان النصف الدماغي الايمن اكبر قليلاً من النصف الدماغي الايسر عند النوعين (الرجال والنساء)، وانهما يبقيان على الدرجة نفسها في الجنسين خلال الطفولة. ولكن بدءاً من مرحلة الرشد، يكون الحجم النسبي للنصف الدماغي الايمن اكبر لدى الرجال. وتعني هذه النتيجة المدهشة ان القدرات المكانية (المتعلقة بالفضاء) والميكانيكية تعمل بنشاط اكبر في النصف الدماغي الايمن مقارنة بالنصف الايسر، وان الرجال افضل من النساء في هذه القدرات.

ووجدوا اختلافات بين الرجال والنساء في الفص الجاسئ (كتلة الالياف العصبية التي تصل بين نصفي الدماغ)، وان هذه الحزمة المؤلفة من مئتي مليون عصب تربط بين نصفي الدماغ، تنمو خلال مرحلة الطفولة، وعندما تمتلئ هذه الاعصاب تماماً، تكسو الاغمدة النخاعية التي تزيد من سرعة نقل البواعث العصبية. ووجدوا ان الفص الجاسئ هذا يكون حجمه اكبر لدى النساء من الرجال، وان هذا قد يشير إلى تكامل اكبر بين نصفي الدماغ لدى النساء.

واتساقاً مع هذا الاحتمال، وجد اختلاف (جندري) مدهش في النشاط الدماغي خلال اداء مهمات لفظية، فعندما يعطى الرجال والنساء مهمة فيها سجع (قصيدة ثقافية مثلاً) فان النشاط يحدث فقط في المناطق اللفظية بالنصف الدماغي الايسر لدى الرجال، فيما يحدث النشاط في كلا نصفي الدماغ عند النساء. وهذا يقود إلى الافتراض بان وظيفة نصفي الدماغ تكون لدى النساء في افضل تكامل لها في بعض المهمات المتعلقة باللغة. وربما يعود السبب إلى ان التشابك العصبي في الفص الجاسئ يكون اكبر عند النساء. وهذا الاختلاف يتسق مع النتيجة التي تقول بتفوق النساء في المهارات اللغوية والسرعة الادراكية والمهارات الحركية، فيما الرجال (بالمعدل) يكون اداؤهم افضل في: الرياضيات والعلوم والدراسات الاجتماعية.

ووجدوا ايضاً ان حجم اللوزة amgdala يكون اكبر لدى الرجال الراشدين، فيما يكون حجم قرن آمون hippo-camps اكبر لدى النساء الراشدات.

واذا علمنا ان اللوزة لها علاقة اكبر بالتعبير عن العدوان، وان قرن آمون له علاقة اكبر في الذاكرة والقمع والكبح، فان هذا يعني ان الذاكرة الجيدة والقدرة على الكبح (الكبت) تكون اكبر عند النساء، فيما الميل إلى العدوان يكون اكبر لدى الرجال.

ويبدو ان الحتميين البيولوجيين استندوا او استفادوا من نظرية التطور لدارون القائلة إن الاختلافات (الجندرية) جرى ترميزها - تشفيرها - في (جيناتنا) عبر آلاف السنين تعرضت فيها النساء والرجال إلى ضغوط نشوئية مختلفة، ونتيجة لأدوارهم المختلفة في الصيد والتناسل.

تصدى الحتميون الثقافيون لهذا المنحى البيولوجي، مؤكدين ان الاختلافات في الادوار الاجتماعية الموصوفة لكل من الرجال والنساء وتقسيم العمل والفرص المختلفة والخبرات والقيود المفروضة مع تلك الادوار هي القوى التي تخلق الفروق الجندرية والاجتماعية والنفسية.

ولا تزال الاختلافات (الجندرية) في السلوك موضوع جدل، ليس فقط على صعيد العلوم الانسانية (علم النفس والاجتماع تحديداً) والعلوم التطبيقية (البيولوجيا والهندسة الوراثية تحديداً)، بل على الصعيد السياسي ايضاً - و(الجندري) بين حركات التحرر النسائية ومعهن رجال يقفون على ضفة (الثقافة)، وبين رجال، معهم نساء ايضاً، يقفون في الضفة الاخرى، ضفة (الجينات) ويتوقع ان يحرز انصار الثقافة نجاحاً اوفر، لسبب عملي هو ان الثقافات قابلة للتغيير، فيما (الجينات)، عصية على ذلك، إلا في حالات نادرة، وعقد بعيد الامد وعدت به خريطة (الجينوم البشري) وقد لا نشهده.

النظام الأبوي وإشكالية الجنس عند العرب

ناجم المعموري

بعد كتابيه (تراجيديا كربلاء) و (صورة الشرق في عيون الغرب)، اصدر الاستاذ ابراهيم الحيدري كتاباً جديداً يحمل عنوان (النظام الابوي واشكالية الجنس عند العرب) وهو كتاب تكرس في قراءة ومتابعة سلطة الثقافة الامومية الاولى في التاريخ وكيف تشكلت وتبلورت وصاغت نظاماً حياتياً (ثقافياً) ودينياً متكاملاً، وصارت مركزاً والذكورة تابعة، وهذا ما يمكن معرفته من خلال قراءة النصوص الاسطورية التي انتجتها المراحل الحضارية الاولى، ولاسيما الزراعية منها، التي كانت المرأة / الام هي منتجة الخطاب والرجل مكتفياً بدور هامشي. وعندما اكتشفت الحفريات في شتال هيوك رجلاً في احد المعابد، فأنه كان يؤدي وظيفة في معبد للالهة الام، أي كان تابعاً وغير متمتع بدور ملحوظ. ولذا تعاملت الدراسات الحضارية مع هذا الاكتشاف في الالف السادس قبل الميلاد بوصفه اول اشارة لتسلل الرجل الى المعبد، لكنه كان ذا وظيفة امومية بجانبيها الثقافي والديني. وكتاب مثل هذا مهتم بالدرس السوسيولوجي في قراءة السلطة البطريركية لابد له من المرور على النشوء الاول لنموذج السلطة الدينية الممثل لها بالام والمرأة، في حين كان الرجل وقتها صياداً مكتفياً بالطواف في الغابة. اعتقد أن العناصر البايولوجية كان لها تأثير واضح في تحديد ورسم الوظائف الخاصة بالرجل والمرأة، ولهذا كان فعل الصيد شكلاً من اشكال التماهي مع السلطة الذكورية وطاقتها في ممارسة الاتصال الادخالي / الجنسي. وفعل الصيد وممارسة وظائف الاتصال ينطويان على عناصر واقعية ورمزية ايضاً. لذا كانت تبديات هذه الوظائف على رموزها ودلالاتها كثيرة. وبالنسبة للمرأة / الام، فقد ظلت مرتبطة بالارض المجاورة لمسكنها، مكتشفة بالتدريج الزراعة باعتبارها نظاماً ثقافياً وهو من اهم الانظمة التي عرفتها الحضارات الاولى، لانه لم يتبلور متكاملا الا بعد تاريخ طويل، وفر على المرأة ادراك تفاصيل كثيرة لها علاقة بالزراعة وهي مكملة واساسية، من قبيل المواسم والفصول والبرودة والحرارة والعلاقة مع البيئة ، ومراقبة المزروعات. وهذا الدور لم يكن مفروضاً على المرأة / الام، وانما كان خصيصة لها، لانها - المرأة - متناظرة من حيث الوظائف والخصائص الرمزية مع الارض والبذر فيها والانبعاث والحصاد وتجدد دورة الحياة، هذه الوظيفة هي التي جعلت من المرأة سلطة اقوى لانها معنية بالارض والخصب، أي هي ذات دور ثقافي مهم، وهي صاحبة القيم والافكار والمفاهيم الانسانية المبكرة في التاريخ. ولم تكن الام في مرحلتها الحيوية ذات صوت منفرد، وانما متحاورة مع الرجولة ومتجاوزة معها، لانها لم تدرك أن الحياة لا يمكن ان تستمر الا بعلاقة وثيقة وقوية بين قطبي الاخصاب، وهما الذكورة والانوثة. ولم تعرف الثقافة الامومية نصوصاً طغيانية، مهمشة للرجل، بل على العكس، تعاملت تمجيداً وتآلفاً. لذا كانت نصوص الجنس المقدس، مثلاً، نموذجاً ادبياً رفيعاً وخلاقاً لسبب بسيط جداً وهو ثنائية العلاقة بين طرفي الحياة، السالب والموجب. ومن هنا، انطوت هذه النصوص الشعرية على قيم ثقافية ودينية وسياسية افضت بالقارئ إلى معرفة الانماط الحياتية التي كانت سائدة انذاك، ولعل اهمها الزواج المقدس المعني بتكريس الحياة وتمجيدها واضفاء القداسة على العلاقة الثنائية / الاتصالية / الادخالية بين المرأة والرجل بوصفها فعلاً انسانياً ودينياً تمثلت فيه قداسة غير متناهية. ووقع اكثر من باحث في تصوره لهذه العلاقة الثنائية وتعامل معها بكونها دنساً، وهي غير ذلك، والغريب في هذه العلاقة الثنائية هو ان المرأة هي المنتجة لخطاب الجنس وهي المانحة له كل عناصره الخلاقة والمقدسة، ولم تكن محوراً فيه، وتلغي الرجل، لانها تدرك جيداً أن الجنس وظيفة لا تكون الا عبر الثنائية، لذا مجدت الرجل واضفت عليه خصائص انسانية ودينية وتعاملت معه بوصفه مكملاً لخطابها. اعتقد أن سبب ذلك هو العلاقة المباشرة مع الارض / الزراعة التي جعلت منها عيناً قادرة على قراءة ثنائية العلاقة بين الطرفين، مضافاً الى ذلك انها ادركت أن الرجل هو امتداد للسماء / الذكورية التي تنزل المطر / المني الى الارض، وهي المخصبة لها، لان الخصوبة في الارض لا تختلف تماماً عن الاخصاب عند المرأة / الام. ومن هنا، تشكلت ثقافة الام، وسلطتها التي هي في الحقيقة حق طبيعي لها، وانتهت بذلك مرحلة سوء معاملة المرأة وامتهانها من قبل الرجل. غير ان سلطة المرأة لم تدم، إذ خرج حقها الطبيعي على حق الدولة وحق المدنية الطبيعي، الذي اوجد اول تنظيم حضاري جديد للحياة، رجلاً واحداً مع امرأة واحدة.

ولكن، لابد من الاشارة الى الدور الحضاري الذي لعبته المرأة / الام في اكتشاف الزراعة كنظام وتكريسها وهو الذي قاد الى خلخلة خطابها وسلطتها الثقافية، لان الزراعة بصورتها المكتملة لم تبق مراوحة في مكانها وانما استدعت تطورات في المجال التجاري والصناعات التكميلية، هذه اوجدت نظاماً جديداً، هو ما يسمى بالقرى الكبيرة او دويلات المدن، كما ادت إلى نشوء انظمة عرفت وغدت صراعاً ثقافياً زرعه الرجل وقاده معمقاً عناصره.وهنا اخذت المرأة تفقد حقها الطبيعي بالتدريج، إذ فقدت اولاً سلطتها في المجتمع، ثم في العائلة، ثم في الدين.وهكذا، بدأت مرحلة حضارية جديدة عليا في تاريخ التطور الانساني هي مرحلة سلطة الاب / البطريركية التي تمثلت بالدولة الرومانية. وقد اشار باخوفن الى ان المرحلة التي سبقت سلطة الاب مثلت المرحلة الذهبية لسلطة الام التي تمثلت بارتفاع مكانة المرأة من خلال سحر الأمومة الى مرحلة جمالية اعلى ووجود منظم اسمى، ولكن الاباحية الجنسية التي طغت على تلك المرحلة كانت قد مهدت السبيل لسقوطها بسبب سلوكها المدمر.

وتضمن الكتاب محاور عديدة ومهمة شكلت في المتن الكلي مفاصل ضرورية ذات علاقة مباشرة بمفهوم (السلطة) كثقافة وكدين. ولذا، درس المرأة والرجل بوصفيهما سلطة، لكن السلطة الذكورية كانت اكثر اتضاحاً وانفتاحاً على خصائص ذات ملامح قاسية وفيها علامات الطغيان المبكر. يشير الحيدري الى ان انتصار حق الاب هو انتصار للحق الميتافيزيقي الذي يعكس مرحلة دينية وفكرية عليا تخلص الانسان فيها من الظلمة، وبذلك انتهت مرحلة الثأر الوحشي والرغبة العارمة التي بدأت بها الانثى وانتهت فيها.

كما يشير الحيدري إلى آراء مهمة للعالم المعروف غريفز في كتابه الشهير (الالهة البيضاء) وهو يستعين بملاحظات جوهرية عن دور الام وصعود خطابها الثقافي والديني، مما اضطره الى اطلاق مصطلح خاص به، يعني المرأة ومرحلتها ومجدها وهو (حضارة الالهة الام)، إذ تشكلت من طقوس غير كاملة الى طقوس متكاملة، وان حضارة البطولة، كرمز للالهة المقدسة، تظهر سنوياً في المراحل الثلاث: الزواج المقدس، والموت، والبعث الى الحياة من جديد، تلك المراحل تقاد من الملكة الكبرى، خلال الاعياد الدينية التي تظهر فيها الالهة الام متمثلة بملوك القبائل.

وفعلاً، شهدت المراحل التي انحسرت فيها سلطة الام الكبرى صعوداً للسلطة الابوية، وكذلك حاز الرجل ملكيته المقدسة، كما قال غريفز، بينما اخذت الطقوس الدينية تتحول لمصلحة الرجل. وقد افاد الحيدري من كتاب (الالهة البيضاء) للعالم غريفز، الذي قدم كثيراً من التفاصيل الكاشفة لتفكك النظام الاموي وتحوله الى نظام ابوي بعد ان اصبح الانتساب الى خط الاب ثابتاً، ولاسيما بعد الانتصارات الحربية المتواصلة لنظام الملكية وتحوله الى نظام ابوي.

يقدم الباحث تفصيلات كثيرة عن ثقافة المرأة في عدد غير قليل من الحضارات الانسانية وبعض الديانات الوثنية، ويدرس النسق الاموي في الحضارة العراقية القديمة من خلال الالهة انانا / عشتار، وقد قدم دراسة مهمة منضبطة ومنسجمة في ترتيب المعلومات الكثيرة التي استعان بها للكشف عن سلطة الام وصلتها بالممارسة الجنسية وكيف استطاع الانسان في العراق القديم اتباع نظام مكرس للجنس واضفى عليه صفات جديدة ومبتكرة. وتعامل الحيدري مع الالهة انانا / عشتار باعتبارها رمزاً للخصوبة والامومة، أي لم تكتف بصفتها الالهية المعروفة. ولكن الحيدري وقع في خطأ شائع لم يستطع العديد من الباحثين العرب التوصل اليه وهو ان عشتار لم تكن رمزاً للامومة، لاننا لم نطلع على اسطورة واحدة تؤكد ان الالهة انانا / عشتار كانت أماً او معنية بوظائف الامومية المعروفة في الحياة، وهو خطأ شاع في الدراسات العربية، بسبب اعتمادها على النقلية المباشرة لمصادر القراءة الغربية. لكن لابد من الاشارة للدراسة الرائدة والجديدة للدكتور نائل حنون الذي اكد بانها (انانا / عشتار) لم تكن أماً، بل اكتفت بوظيفة الجنس والشبق والرغبات.

لكن لي قراءة اخرى مختلفة عن كل القراءات تعتمد احد النصوص الاسطورية المشهورة جداً، وهي (انانا وجلجامش وشجرة الخالوب) ينطوي هذا النص على سعي واضح وملحوظ للالهة انانا / عشتار لحيازة خصيصة الخصب / الامومة الرمزية، لكنها لم تستطع تحقيق ذلك والعودة الى الاسطورة واكتفت بالتوصل الى هذا الرأب، ولم استطع العثور على نص اخر يفضي بالقراءة والدرس الى ما يؤكد وظيفتها الامومية في الحضارتين السومرية والاكدية (البابلية والاشورية) وما زال الدرس الثقافي الخاص بالام الكبرى في التاريخ أسير التوصلات الغربية واقتراح نمط عشتاري، تبدأ في كتاب الاستاذ فراس السواح (لغز عشتار) الذي ينطوي على تعميم خلق ارباكاً للقارئ والباحث وقد سقط فيه الكثير ونشأت مفاهيم غير صحيحة وحصراً عن الالهة انانا / عشتار، التي كانت في كتابه اسماً عاماً وشاملاً يستوعب كل عناصر الالوهة المؤنثة في تاريخ الحضارات. لذا كانت الوهات عشتاريات وكانت سوداً وبيضاً لها وظيفة جنس وحرب وسحر وخمرة واخصاب ولها علاقة بالقمح وما إلى ذلك، بمعنى ان كتاب (لغز عشتار) كان كشكولاً اثار ومازال عدداً من التورطات لدى الباحثين، ومنهم ابراهيم الحيدري.

وبعد ان درس عميقاً ثقافة المرأة / الالوهة المؤنثة، توصل الى ان المجتمع الابوي يشير الى مفهوم المجتمع التقليدي الذي اتخذ طابعاً مميزاً بالنسبة الى البنى الاجتماعية الكلية: المجتمع والدولة والاقتصاد والثقافة، وكذلك الى البنيتين الجزئيتين (العائلة والشخصية) التي تتخذ بمجموعها طابعاً يتسم باشكال نوعية من التخلف الاجتماعي والاقتصادي والثقافي تعيق تطوره وتقدمه، مثلما يتسم هذا المفهوم الابوي بالتحجر والجمود والتناقضات الداخلية التي تمزقه.

اهتم الكاتب، من خلال التفاصيل الواسعة في كتابه (النظام الابوي واشكالية الجنس عند العرب) بالام الكبرى وسلطة المرأة الثقافية والدينية والتحولات الحاصلة فيها مع ارتحالاتها الكثيرة وخصائص الاستبدال. ويكاد يكون الكتاب مكرساً بالكامل للدور الحضاري الذي قامت به المرأة وعناصر ديانتها وخصائص ثقافاتها المتنوعة التي عرفتها حضارات الشرق